العدد الثامن ■ شباط/فبراير ١٩٨٩ ■
السنة الأولى ■
No. 8 ■ FEBRUARY 1989 ■ YEAR 1

الناقد

AN.NAQID
A MONTHLY CULTURAL REVIEW

شهريّة تعنى بإبداع الكاتب وحريّة الكِتاب

قصص من المغرب:
عشر قصص
لعشرة قصاصين

■ أنسي الحاج:
قصيدة جديدة

■ الصادق النيهوم:
لغة الموتى

■ يوسف سامي اليوسف:
الصوفية والنقد الأدبي

■ شوقي بغدادي:
خلاص الشعر

■ أنيس الجزائري:
أثر السلفية في الحداثية

■ حنا عبود:
مقاربة الحداثة

■ عبد النبي اصطيف:
نظرة في تحديث
الأجناس الأدبية

■ النقد:
صبري حافظ
موريس أبو ناضر
صلاح عبد الله
عقل العويط
أنطوان أبو زيد
سمر روحي الفيصل

■ الشعر:
هاشم شفيق
هاتف الجنابي
ابراهيم نصر الله

● عبده وازن
الانتقام من الماضي

● غالي شكري
فيليب بن ذي يزن

£ 3.00 in U.K.

نظرة في تحديث

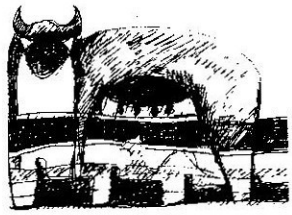

عبد النبي اصطيف

■ على الرغم مما يبدو من تنامي وعينا بوثاقة الصلة بين الأدب والثورة في الحياة العربية المعاصرة، ومحاولة تلمسنا لوجوه هذه الصلة في مختلف جوانب هذه الحياة، فإن المرء يميل الى الاعتقاد بأن ثمة فسحة للتأمل في طبيعة هذه العلاقة حتى يكون طرفاها أكثر فاعلية وإيجابية في تأثيرهما المتبادل فيما بينهما. فكما نريد لهذا الأدب أن يكون أكثر حفزاً وتوجيهاً وتأكيداً لقيم الثورة الحقيقية في المجتمع العربي، نود لهذه الثورة أن تكون أكثر عمقاً وجوهرية في تفاعلها مع جوانب هذا الأدب.

وبالطبع فإن ذلك لا يكون إلا عندما تصبح الثورة منظوراً شاملاً للعالم الذي نعيش فيه، ولحظة مستمرة تحتضن الماضي والحاضر والمستقبل في آن معاً. ومعنى هذا أنها تغدو في حياتنا ممارسة يومية تحفزنا على إعادة النظر في كل شيء من حولنا، بحثاً عن فسحة للأفضل والأكثر جدوى فيه.

من هنا تغدو إعادة التفكير في الأجناس الأدبية، ويصبح النظر في تحديثها، جزءاً من هذه الممارسة اليومية للثورة من جهة، وتعزيزاً للمنظور الشامل الذي نودّ له أن يحتوي عالمنا من جهة أخرى.

* * *

ينصرف التفكير في تحديث الأجناس الأدبية الى النظر في ثلاث قضايا متصلة فيما بينها اتصالاً وثيقاً.

* وأول هذه القضايا هي ما يمكن أن نطلق عليه جملة الإشكالات والتساؤلات التي تطرحها صياغة كهذه لمشروع تحديث الأجناس الأدبية العربية. فلربما كان بسط الحديث في هذه الإشكالات والتساؤلات يضعنا في موقع أفضل نتبين من خلاله ما ينطوي عليه هذا المشروع بالنسبة للأدب العربي الحديث.

* وثانيها هي ما يمكن أن نَسِمَهُ بمسوِّغات مشروع تحديث الأجناس الأدبية في عصرنا. بمعنى إن علينا، إذا ما تجاوزنا الإشكالات والتساؤلات التي يثيرها، ان ننظر في دواعي عملية التحديث هذه بشكل عام. وبالطبع فإن المرء مضطر هنا الى مقاربة هذه الدواعي من منظور الأدب العام General Literature ، لأسباب مختلفة سيشار الى بعضها في ثالثة قضايا هذا المشروع، وهي:

* سبل تحديث الأجناس الأربعة العربية. وبسبب طبيعة نشأة معظم هذه الأجناس وتطورها في إطار المواجهة مع الآخر the Other ، وهو في هذه الحالة أوروبا، فإننا مضطرون الى البحث في هذه السبل من وجهة نظر مقارنة Comparative point of view . ذلك أن الأدب العربي الحديث، في استلهامه لهذه الأجناس من التقاليد الأدبية الأوروبية، لم يتعرف إليها من خلال مخططات نظرية شرحت لمنتجيه، ووضحت عناصرها ومكوناتها ووظائفها لهم حتى ينتجوا نسخاً عربية منها. وكما وضحت في مناسبة سابقة:

«لقد تعرف الأدباء العرب المحدثون الى هذه الأجناس الأدبية الأوروبية في اللغات الأوروبية المختلفة التي قرؤوها مترجمة أو بلغاتها الأم - تعرفوا الى القصة القصيرة كجنس أدبي له مواصفات معينة من خلال قصص قصيرة لفلان أو لفلان من الكتاب الأوروبيين ترجمت إلى اللغة العربية بصورة من الصور، مباشرة أو عن طريق أخرى، أو قرؤوها بلغتها الأم، أو بلغة أخرى يعرفونها. وكذا الشأن في الأجناس الأدبية الأخرى (كالرواية والمقالة والمسرحية والسيرة والسيرة الذاتية وحتى الشعر الحديث) التي تعرفوا إليها من خلال النماذج، أي من خلال تجسيدات فعلية لهذه الأنواع التي لم يعرفها الأدب العربي الحديث من قبل»[1].

ومعنى هذا أن الانفتاح على الآداب الأخرى سيظل عاملاً يؤخذ بالحسبان عند مناقشة أية قضية تتصل بأدبنا الحديث؟ أي أن المنظور المقارن في مقاربة هذا الأدب ومسائله ضرورة منهجية تقتضيها طبيعته الخاصة به. وبالطبع فإن هذا المنظور سيكون أكثر ضرورة عندما يأتي الأمر الى مسألة تحديث أجناسه المختلفة.

وباختصار شديد، يمكن القول إننا إذا ما استطعنا بداية تجاوز جميع الإشكالات التي يطرحها هذا المشروع من جهة، والإجابة عن جميع التساؤلات التي يثيرها من جهة أخرى، ورأينا ان ثمة سوغات كافية للشروع في عملية تحديث أجناسنا الأدبية العربية، يمكن أن نسلك السبل المقترحة في القيام بهذه العملية التي تتسم بالحساسية الشديدة.

* * *

إشكالات وتساؤلات:

لا بد لنا قبل الشروع في عملية تحديث الأجناس الأدبية، ان

نتبين مواقع خطونا، فمن الضروري أن ندرك تماماً ـ ما ينطوي عليه مشروع كهذا، أو على الأقل، ما تنطوي عليه صياغة له على هذا النحو.

أول ما يمكن للمرء أن يشير إليه في صياغة هذا المشروع هو كلمة «تحديث» التي تستخدم في المعجم العربي الحديث مقابلاً لكلمة «modernization»، والتي تجعل الدارس يتساءل عن طبيعة عملية التحديث. فهل عملية التحديث للأجناس الأدبية جزء من عملية أشمل تستهدف نقل المجتمع العربي بختلف جوانبه من طور الى طور، من القدم إلى الحداثة ـ أم أنها عملية مقصورة على الأدب وحده؟ وعندها كيف نجيز لأنفسنا الحديث عن الأدب والمتغيرات الاجتماعية؟

وكذلك فإن هناك إشكالاً آخر يلح على الناظر في هذه الصياغة هو أن عملية التحديث هذه فيما يبدو عملية خارجية External Process يفترض أن يقوم بها طرف ما خارج الأجناس. بمعنى ان عملية التحديث ستكون نتيجة لجهد ناقد ما، أو كاتب ما، أو موجه ما لعملية الإنتاج الأدبي في المجتمع، وليست نتيجة تطور طبيعي تحكمه طبيعة الأجناس الأدبية ذاتها.

وفضلاً عما تقدم فإن التفكير في «تحديث» الأجناس الأدبية يعني أن هذه الأجناس أصبحت «قديمة» لا تنسجم تمام الانسجام مع السياق الأشمل ـ الأدبي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ـ للمجتمع الذي تنتج فيه. فهي لا تواكبه بشكل عام، أو ربما لا تواكب جانباً منه. إنها بعبارة أخرى مخالفة له على نحو من الأنحاء. فقد يكون مجتمعنا مجتمعاً حديثاً، أو مجتمعاً في الطريق الى أن يكون حديثاً، أي في طور التحديث، أو مجتمعاً طامحا الى شيء آخر غير ما هو فيه، إلا أنه على أي حال على خلاف بيّن مع هذه الأجناس بدرجة من الدرجات، أو في مستوى من المستويات، أو بوجه من الوجوه. وهذه الأجناس غير حديثة وإلا لما أردنا تحديثها. ونحن نريد تحديثها لأنها استنفدت جزئياً أو كلياً الغرض من وجودها. أو أنها يمكن، كما نأمل، أن تحقق هذه الأغراض على نحو أكثر فاعلية إذا ما خضعت لعملية التحديث هذه.

إن الحافز على عملية التحديث هذه إذن حافز داخلي فيما يبدو. فثمة تغيرات في طبيعة حياتنا الجديدة هي من الأهمية بدرجة تستدعي معها أن نعيد النظر في الأجناس الأدبية ونسعى الى تحديثها. ونحن على درجة ما من الوعي بتلك التغيرات وإلا لما فكرنا في عملية التحديث هذه.

ولكن قد لا يكون الحافز الداخلي هو كل شيء وراء هذه العملية. فنحن نعيش في عالم يتحول بالتدريج الى قرية صغيرة يعرف كل ركن فيها ما يجري في الأركان الأخرى. ونحن نشاهد، ونسمع، ونرى، ونقرأ عن هذه الأركان الأخرى في قريتنا ـ العالم، وربما نحس بعد أن نشاهد، ونسمع، ونرى، ونقرأ عن الأجناس الأدبية في الآداب الأخرى، ان الأجناس الأدبية الممارسة في ثقافتنا العربية المعاصرة أقل تحديثاً مما هي عليه في الثقافات الأخرى، وان علينا لذلك ان نحدّثها حتى تنسجم مع هذا السياق العالمي الأوسع للأدب والثقافة والمجتمع عامة، وتنسجم أيضاً مع السياق الأشمل الخاص بأدبنا وثقافتنا ومجتمعنا، وبعبارة أخرى، إن علينا أن نحدثها حتى تستطيع مواكبة السياق الخارجي / للآخر، مواكبتها للسياق الداخلي الخاص بنا في آن معاً.

إن موضوع عملية التحديث هو الأجناس الأدبية Literary Genres أو الأنواع الأدبية Literary Kinds ، والتفكير بتحديثها ينطوي على حقيقة مفادها أن ثمة وعياً كافياً لدى من يفكر في عملية تحديث هذه الأجناس بهويتها، وعياً يشمل نشأتها، وتطورها، طبيعتها ووظيفتها، حدودها ومعاييرها، أعرافها وقوانينها، نُظُمها وقواعدها. بالطبع فإن هذا الوعي ينبغي ألا يقتصر على منتجي الأعمال التي تنضوي تحت هذه الأجناس الأدبية من الكتاب، بل أن يشمل كذلك نقاد هذه الأعمال، مثلما يشمل قراءها أيضاً. والسؤال الذي ينبغي أن نواجهه في مرحلة تبين الخطى التي أشرت إليها هو هل وصل الوعي لدى المبدعين العرب، والنقاد العرب، والقراء العرب بهذه الأجناس الأدبية إلى درجة كافية من جانب، ومؤهلة من جانب آخر لأي منهم للشروع في عملية التحديث هذه؟ هل درجة وعي مستهلكي الأعمال الأدبية التابعة للأجناس الأدبية المختلفة كافية لتفهم عملية التحديث وتقبلها خاصة وأنهم المعنيون بهذه الكتابة، وهم الذين يموّلون في النهاية عملية الانتاج الأدبي، وعصرنا عصر القارىء منذ

انظر د. عبد النبي اصطيف، «دعوة الى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده»، الآداب الأجنبية (دمشق)، العددان (٥٠ـ٥١)، السنة (١٤)، شتاء وربيع ١٩٨٧، ص ص (١٠٧ـ١٠٨)

الأجناس الأدبية

أعلن رولان بارت «موت المؤلف».

ولنفرض أن الوعي بهذه الأجناس الأدبية قد وصل الى الدرجة المطلوبة لدى هذه المجموعات الثلاث المعنية بعملية الإنتاج الأدبي: الكتاب والنقاد والقراء، فهل سيتقدم في عملية التحديث الكاتب، أم الناقد، أم القاريء؟

وإذا قدمنا الكاتب فهل سيكون دور الناقد عندئذ دوراً توصيفياً يقتصر على مجرد وصف ما يتجه الكاتب دون أن يجاوز ذلك الى ما هو ممكن بالقوة في النظام الأدبي الذي يحكم الإنتاج في الأجناس الأدبية الخاضعة لعملية التحديث؟

وإذا قدمنا الناقد فهل سيكون عمله عملاً استكشافياً يؤطر فيما بعد في نظم وقواعد ومعايير وأسس تختزل دور الكاتب الى مجرد تطبيق أو تجسيد لها في أعمال أدبية تقدم للقاريء بغض النظر عن آفاق توقعاته المستلهمة من الأجناس الأدبية في صورها السائدة؟

وإذا قدمنا القاريء فهل سيكون عمل الناقد أو الكاتب عندها استشراف ما يلوح في آفاق توقعات القاريء من مؤشرات تحديث والإفصاح عنها من خلال الدعوة الى تجسيدها في أعمال أدبية محددة أو من خلال تنفيذها في أعمال ترضي هذه المؤشرات؟

وإذا رغبنا في أن نعرض عن المنظور السلّمي في التعامل مع هذه النقطة، وأن نلغي فكرة تقديم أي من المشاركين الثلاثة، ونستبدل بها منظوراً تكاملياً Integrative، فما مقدار التكامل الذي يمكن أن نحققه بين الأطراف الثلاثة في عملية التحديث، وما هي نواظمه، وما هي محددات الوشائج التكاملية فيما بينها، وهل ستكون هذه المحددات محددات خارجية تتصل بالسياق الذي تتم فيه عملية التكامل، أم محددات داخلية تتصل بطبيعة كل طرف في عملية الإنتاج الأدبي من جهة وقوانين تطويرها وتحديثها من جهة أخرى؟

تلك بعض الاشكالات التي ينبغي أن نواجهها، وننظر فيما تنطوي عليه قبل الشروع في أية عملية تحديث للأجناس الأدبية العربية المعاصرة.

ولكن ماذا عن صلتها بالواقع العربي الأدبي وما فوق الأدبي Extra-Literary معاً؟ يمكن للمرء إذا ما رغب في إيجاز الحديث عن هذه الصلة ان يشير الى الملاحظات التالية:

◆ **ليس المهم تحديث الأجناس الأدبية لدينا وإنما ترسيخ مفاهيمها لدى نقادنا وقرائنا وكتابنا**

١. فيما يتصل بالمجتمع العربي

يلاحظ المرء وبأسف شديد أن المجتمع العربي لا يزال على عتبة عملية التحديث Modenization، بمعنى أنه لما يصبح مجتمعاً بالمعنى الحقيقي للكلمة.

صحيح أنه يستخدم أحدث ما توصلت إليه التقنية الحديثة من أدوات ووسائل وأجهزة ومعدات في كافة مرافقه ومؤسساته، إلا ان المرء لا يمكن أن يزعم أن من يستخدمها من العرب المعاصرين ينتمي للعصر الذي نعيش فيه قلباً وقالباً. فعلى سبيل المثال لا تزال تربية العربي المعاصر دون هوية اجتماعية واضحة، فهو لم يتخل تماماً عن تربيته البدوية أو الفلاحية أو البلدية الصغيرة ولم يكتسب بعد تربية ساكن المدينة الكبيرة. إنه يراوح بين هذه وتلك، ومراوحته هذه تشمل عاداته اليومية، وقيمه، ومبادئه، وسلوكه بشكل عام. والمجتمع العربي المعاصر حافل بالمفارقات التي تنطوي عليها حياة العربي المعاصر. وإذا ما صحّ زعم أحدهم في أن المدينة سميت مدينة لأن أهلها يدينون فيها للنظام والقانون فإن المرء لا يمكن أن يزعم نسبة هذه الصفة لأية مدينة عربية إلا بقسط كبير من المرونة.

إن النظام وحسن المعاملة والجوار وضبط الوقت والحرص عليه والحس الاجتماعي النامي، واحترام القانون وغيرها من قيم المجتمع الحديث، على سبيل المثال، تكاد تكون في كثير من الأحيان موضع ارتياب، ويشكل الالتزام بأي منها مسألة فردية بحتة. وما ذلك إلا لأن المجتمع العربي لم يستطع بعد أن يستجيب الاستجابة السليمة للتغييرات الاقتصادية والتقنية التي دخلته. وبمعنى ما، إن هذا المجتمع العربي «الحديث» قد يكون في وضع اقتصادي نام، ولكن نموه الاجتماعي والسياسي والثقافي والتربوي لا يزال يمضي متعثراً مضي السلحفاة، ولا يواكب بحال نموه الاقتصادي الذي هو في حقيقته نمو غير حقيقي، لأنه نمو غير معافى.

أضف الى ذلك، فإن ثمة تفاوتاً هائلاً في درجة نمو المجتمع العربي في الأقطار العربية المختلفة على جميع المستويات.

وصفوة القول ان الأمر لا يقتضي عالم اجتماع عبقري حتى يتبين أن المجتمع العربي مجتمع حديث بالنيات أكثر منه مجتمعاً حديثاً بالواقع. والنيات الطيبة لا تكفي وحدها لخلق مجتمع حديث.

٢. فيما يتعلق بالأجناس الأدبية

يمكن للمرء أن يشير الى أن معظم الأجناس الأدبية الممارسة اليوم في الأدب العربي الحديث، باستثناء الجنس الأدبي العريق ـ الشعر الغنائي، وبعض الأجناس الأقل شيوعاً كالملقامة، هي أجناس حديثة العهد لا تعود بداياتها إلا الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فالرواية the novel والقصة القصيرة short story، والرواية القصيرة ـ النوفيلا novella، والسيرة biography، والسيرة الذاتية autobiography، والمسرحية drama، جميعها أجناس أدبية مستلهمة من تقاليد أدبية أجنبية أتاحتها عملية المواجهة مع الآخر التي احتدمت في القرنين الأخيرين.

وإذا كانت هذه الأجناس أجناساً حديثة، ولم تكد تستقر وتتوطد أركانها في الأدب العربي الحديث، فكيف يمكن للمرء أن يفكر في تحديثها؟ وكيف يكون ذلك المجتمع الذي يفترض بها أن تستجيب للتطورات التي يخضع لها ليس مجتمعاً إلا بالنيات فقط؟

وبكلمات أخرى كيف نحدِّث ما هو حديث لتوه لدينا؟ ألا يشكل ذلك إسرافاً في سوء فهم حدود عملية التحديث وطبيعتها ووظيفتها في المجتمع المعاصر؟

وفضلاً عما تقدم من عدم استقرار معظم الأجناس الأدبية الممارسة اليوم في الأدب العربي، فإن الوعي بهذه الأجناس على مستوى النقاد العرب، والقراء العرب، والكتاب العرب، لم يبلغ بعد درجة مرضية وكافية للإقدام على تحديث هذه الأجناس. فالنقاد العرب المعاصرون لم يستطيعوا بعد ترسيخ مفاهيمها، ومحاولاتهم في هذا الاتجاه ما زالت محاولات مدرسية بسيطة متواضعة (محمد مندور، عز الدين اسماعيل، خلدون الشمعة[٢]) وكثيراً ما تجدهم يستخدمون معايير خاصة بجنس أدبي ما في دراستهم لجنس أدبي آخر، الأمر الذي يعكس اضطراب وعيهم بهذه المعايير وتفهمهم لطبيعتها ونشأتها ووظيفتها الخاصة بكل جنس. والقراء العرب من جانبهم، وعلى الرغم من احتفائهم بالممارسات العربية المختلفة في الأجناس الأدبية المتنوعة، يتحركون بحسهم الذي كونته قراءاتهم في الآداب الأخرى أكثر مما كونته إسهامات النقاد، وكذلك شأن الكتاب العرب الذين يهتدون في هذه الممارسة بفطرتهم من جانب، وقراءاتهم من جانب آخر، وبمحاولاتهم الخاصة بهم من جانب ثالث.

وهكذا فإن السؤال الذي يغدو أكثر أهمية، وربما أكثر إلحاحاً، في هذا السياق، ليس تحديث الأجناس الأدبية لدينا، وإنما ترسيخ مفاهيمها لدى نقادنا، وقرائنا، وكتابنا.

ومع ذلك، فإن ثمة ما يمكن أن يُسوِّغ التفكير في تحديث الأجناس الأدبية عامة، ولعل ثمة سبلاً يمكن أن تسلك للقيام بهذه العملية □

(٢) بالاضافة الى محاولات كل من الأستاذين احسان عباس ومحمد يوسف نجم، ومما يجمع بين هذه المحاولات ـ خلا الشمعة ـ هو إصرارها على نعت الجنس الأدبي بالفن الأدبي، الأمر الذي أدى الى زعزعة مفهوم الجنس الأدبي في ذهن القارىء. وقد لاحظت اضطرابه حتى في أعمال طلاب الدراسات العليا ممن يعدون رسائل الماجستير والدكتوراه.